

التجارب في الزراعة

للأستاذ عبد اللطيف عامر

محدثنا في العدد السابق عن الجهود التي بذلها " روبرت أوين " لتحسين حالة العمال ، وتحدثنا عن مقدار النجاح الذي ناله في خطواته الأولى . ويسرنا أن نواصل البحث فقد كان للنتائج الباهرة التي حصل عليها في مصنعه أثر كبير تحدث به الناس وأذاعوه في طول البلاد وعرضها ، وأصبحت بذلك " نيولانارك " كعبة الباحثين الاجتماعيين وأصحاب المصانع الأخرى الذين توافدوا على زيارتها من كل مكان للدراسة والاقتراب . .

بل إن هذا النجاح الذي أحرزه " روبرت أوين " دعاه هو نفسه إلى أن يتوسع في نظريته إلى امكان زيادة التحسين في حالة المجتمع ، وإلى تكوين فكرة بناها على أساس اشتراك لفيق من العمال يتراوح عددهم بين ٥٠٠ و ٣٠٠٠ يعيشون عيشة مشتركة في مستعمرة واحدة ، وينفصل لهم بناء واحد على شكل مربع مقسم إلى مساكن مستقلة ، وبه مطبخ واحد ومطعم واحد للجميع ، ويخصص لكل عائلة مسكن مستقل . من تلك المساكن ، وعلى كل عائلة أن تربي أطفالها إلى سن الثالثة ثم يعهد بتربيتهم بعد ذلك إلى المجتمع ، وعلى الوالدين الاشراف على أطفالها في أوقات الطعام فقط . وكان من رايه أن يكون ما ينتج عن العمل من دخل مشاعا بين الجميع ، وكان من آمال " أوين " أن يتمكن من اعطاء خير فرصة للتعليم ، وأن يجمع في مستعمراته هذه بين مزايا الريف والحضر ، وأن يقضى على مساوئ العمل في المصانع ، وأن يربط هذه المستعمرات بعضها ببعض بالعشرات ثم بالمئات ثم بالألوف حتى يصبح العالم كله مجموعة ذات مصالح مشتركة موحدة .

وقد بدئ فعلا في عام ١٨٢٥ بإخراج فكرة أوين هذه إلى حيز الوجود تحت إشراف أحد اتباع أوين واسمه " ابرام كومب " واختير لها " أوربستون " بالقرب من " جلاسيجو " ، إلا أن التجربة كانت فاشلة على طول الخط إذ تقلبت المتعة الذاتية وانتشر الكسل بين أفراد المستعمرة ، وعم بينهم الإهمال ، وتعودوا القذارة ، كما ثبت بالتجربة أن المطبخ أو المطعم العام للجميع عمل غير ناجح ، وقيل إن الطهي المنزلي أحسن وأرخص . ولم تقو هذه المستعمرة على البقاء أكثر من سنتين أي أن عمرها انتهى عام ١٨٢٧ .

وقد حاول أوين محاولة أخرى في أمريكا في بلدة "نيوهارمزني" في مقاطعة "انديانا" فاشترى ١٨٢٤م (٢٠,٠٠٠ قدان) وذهب بنفسه إلى أمريكا وخطب عقب وصوله في مجلس الجمعية الوطنية "National House of Representatives" مينا القواعد التي سبينا عليها مشروعه ، وكان الفشل نصيب هذه المحاولة كما كان نصيب اختها في إنجلترا .

عاد أوين بعد ذلك إلى إنجلترا ليقوم بمحاولة من نوع جديد، فقد وجد أن المحل المتزلي الذي افتتحه في نيولانارك صادف نجاحا كبيرا ، وأوحى إليه ذلك النجاح أن يبنى نظريته الجديدة على مبدأ الاستغناء عن الوسطاء في تبادل السلع ، ولكن يتم له هذا لم يكتف بوضع الأساس لانتشار المحلات المتزلية بل رأى أيضا أن يغير من نظام التبادل وأن يضع مقياسا جديدا للقيمة هو "العمل" ، فجعل أساس العمل اليومي عشر ساعات ، وأجرة الساعة من العمل ٢٥ مليا ، فالكرسي مثلا تقاس قيمته بالساعات التي صرفت في صناعته مضافا إليها قيمة المادة الخام . وبدأ فعلا تنفيذ هذه الفكرة فافتتح في ١٧ سبتمبر من عام ١٨٣٢ سوقا للتبادل بالعمل أسماها "The National Labour Exchange" وقد لاقت هذه السوق في بادئ الأمر إقبالا ثم ما لبثت أن قامت في وجهها العراقيل والصعوبات الكثيرة فمدل عنها .

ولم تكن جهود روبرت أوين قاصرة على هذه المحاولات المتعددة بل كان إلى جانب ذلك من أعلام الخطابة والكتابة في عصره ، فقد كان ينظر إلى العمال في إنجلترا نظرة لاتزيد على نظرة الأثرياء لحبواناتهم الأليفة ، وكان العمال مبعدين كل البعد عن أي نوع من الاشتراك في شؤون الدولة أو التدخل فيها ، وكانوا محرومين من كل الحقوق السياسية وما يجب أن يتمتع به أفراد الأمة من حرية :

ويقول بعض الباحثين في تمليل ذلك إن هذه الحالة التي كان عليها العمال هي أثر من آثار عهد الإقطاع في القرون الوسطى ، ويقول آخرون إنها نتيجة لتجارة الرقيق التي كانت موجودة في إنجلترا ، والتي أثرى بسببها كثير من الإنجليز .

وكان الاعتقاد السائد في ذلك الوقت إن الطبقة العاملة إنما خلقت للعمل اليدوي فقط وهي لاتصلح بطبيعتها للتعليم ، وإن تقدم المملكة لا يكون الا بتشجيع الصناعة والتجارة وإعطاء الحرية التامة لأصحاب المصانع والتجار للحصول على الأرباح .

ومن سوء الحظ أن هذه الاعتقادات الخاطئة وجدت ما يبررها في نظر الطبقة المتعلمة من كتابات علماء الاقتصاد ، وكان الاقتصاد لا يزال علما حديثا له بهجته وجاذبيته في نظر الجمهور الذي كان يقبل بشغف على نظريات "آدم سميث" و "توماس" و "مالس" و "ريكاردو" .

وكان العمال كلما طالبوا الحكومة بأن تتدخل لحمايةهم وإنقاذهم من أصحاب رءوس الأموال وجدوا لديها من نظريات آدم سمث ردا على هذه المطالب ، وكان هذا الرد يتلخص في أنها خارجة عن التدخل لأن كل تدخل من جانبها يتعارض مع السير الطبيعي للقوانين الاقتصادية ولا بد أن ينتج عنه ازدياد الضرر إن عاجلا أو آجلا .

والذي يقرأ كتاب آدم سمث الذي أسماه ثروة الأمم "The Wealth of Nations" - وهو أول ما ألف في علم الاقتصاد عام ١٧٧٦ - يراه يقول " إن كل نزاع بين العمال والرأسماليين لا مبرر له على الإطلاق ، لأن الجميع مسوقون بيد خفية تدفعهم لخير المجتمع عن طريق العمل لمصلحتهم الشخصية ، كما أن من النظريات الاقتصادية التي ظهرت في ذلك الوقت نظرية مالش في السكان ، ونظرية قانون الأجور الحديدي ، ونظرية تخصص الأجور "Wage Fund" وكلها نظريات تلتقي عند نقطة واحدة هي أن العمال لا أمل لهم في تحسين أجورهم أو رفع مستواهم .

ولذلك فإن مهمة المصلحين الاجتماعيين وعلى رأسهم روبرت أوين كانت مهمة شاقة فقد كان عليهم أن يدحضوا هذه النظريات الاقتصادية الخاطئة ويظهروا ما فيها من سفسطة ويقنعوا الجمهور والحكومة بصدق نظريتهم القائلة بأن سعادة المجتمع يجب أن تكون مفضلة على تكوين الثروات الخاصة ، وأن النزاع القائم بين ملاك الأرض وأصحاب رءوس الأموال والعمال بسبب الانقلاب الصناعي لا تبرره الأوضاع الطبيعية للأمر ، وأن الحرية التي يتمتع بها الأفراد يجب أن توجه الى التآزر والتعاون مع بعضهم البعض لا الى التناحر والتنافس .

وقد كان لروبرت أوين كتابات قيمة في هذا الصدد ، ومن أهم كتبه كتاب مقسم الى أربعة موضوعات أسماه "نظام جديد للمجتمع" "A New View of Society" يتناول فيه وضع أساس لما يجب أن يكون عليه خلق المجتمع ، كما ناضل نضالا كبيرا في الدفاع عن حقوق العمال ، وله كتابات متعددة تتناول وجوب صدور تشريع للعمل يمنع تشغيل الأحداث وتنظيم ساعات العمل ووضع نظام حكومي للرقابة على المصانع .

هذه هي أهم أعمال روبرت أوين وتعاليمه ، وقد كان لها الفضل كل الفضل في تكوين رأى جديد للمجتمع ينطوي على عدل وإنصاف لحقوق الطبقة العاملة المهضومة الحقوق ، كما أن هذه التعاليم والأعمال ألفت الضوء على ما يمكن للعمال أن يكتسبوه من وراء جهودهم المشتركة ، ولذا فقد أجمع الباحثون في الشؤون التعاونية على تسميته "أبا التعاون"

أما المعاصرون لروبرت أوين من المصلحين الاجتماعيين فنذكر منهم "وليم تومسون" وكان من الملاك الإيرلنديين في محافظة كورك ، وكانت كتاباته من أحسن ما نشر عن التعاون

في ذلك الوقت ، فقد نشره في عام ١٨٢٤ "بحث في توزيع الثروة على المبادئ الأكثر صلاحية لسعادة المجتمع" ، وفي عام ١٨٢٧ "بحث في مكافأة العمل أو كيف يحتفظ للعامل بكل الناتج من جهوده" وفي عام ١٨٣٠ نشرت له "إرشادات علمية لتأسيس الجماعات الاقتصادية".

ويتبين من كتابات تومسون أنه كان من المتبعين لكل النظريات الاقتصادية التي ظهرت في ذلك الوقت ، وكان رأيه من رأى ريكاردو العالم الاقتصادي في أن رأس المال ماهو إلا عمل مدخر ، وأن أثمان السلع في السوق تحدد بمقدار العمل الذي صرف في إنتاجها . وقد استخرج تومسون من هذه النظريات أن العامل وحدهم هم العامل الوحيد في الإنتاج ، ولذلك يجب أن يعود عليهم وحدهم كل ما يأتي به الإنتاج من ثروة .

وكان يقول إن ملاك الأراضي وأصحاب المصانع والآلات بحكم تملكهم ، ووضع أيديهم عليها ، يتحكمون في العمل ، فبدلاً من أن يؤجروا لهم ما في حوزتهم من ثروة ليقوم العامل بعملية الإنتاج لأنفسهم ولحسابهم فإنهم يرغبون العامل على قبول العمل بأجور لا تتعدى الحد اللازم للقوت الضروري ، ويستولونهم بغير وجه حق على كل فائض أوريح من الإنتاج ، وأمام هذا التحكم وهذه السيطرة من جانبهم فليس أمام العامل غير القبول أو الموت جوعاً .

وكانت كتاباته في التعاون تؤكد أن لا سبيل أمام العامل للخلاص من هذه الحالة إلا بالتعاون وكان يرى أن هذا التعاون بين العمال لا يستدعي وجود أموال ضخمة كما كان يقول روبرت أوين ، وكان يرى أن تفكير العمال في إحداث الثورات لا يعود عليهم إلا بالضرر ، وأن الواجب على المتعاونين أن يطالبوا الحكومات بحماية المنشآت التعاونية .

ومن المعاصرين لروبرت أوين الدكتور "وليم كنج" وهو من كبار التعاونيين في ذلك الوقت ، وكان دكتوراً مارس صناعة الطب أربعين سنة في بريتون بإنجلترا ، وكان من أهم جهوده إصدار مجلة شهرية للتعاون في عام ١٨٢٨ داومت على الظهور ٢٨ شهراً وكان يسميها "The Co-Operator" .

وقد أودع وليم كنج في هذه المجلة آراءه القيمة في التعاون ، ويتبين مما كتبه أنه كان من المؤمنين بأن المظهر الصحيح للتعاون إنما يقوم على أساس المستعمرات ذات الكفاية

والإدارة الذاتية "Self Supporting and Self Governing Communities" وكان يضع همه الأول في إرشاد العمال إلى كيفية البدء في العمل على إيجاد هذه المستعمرات بالرغم من افتقارهم إلى المال فكان يقول :

" يتحقق الجمال الفاتن في التعاون بلا حاجة إلى رأس مال ، فالرجل لا يحتاج في تعاونه إلا إلى أجره اليومي وزميل أمين ، فإذا وجد ثالثا اطمأنوا جميعا إلى أن الحبل المقنول ثلاث صرعات لا يسهل قطعه ، وفي وسعهم أن يكتبوا كل أسبوع بمبلغ زهيد ينفعهم وقت المرض أو البطالة ، وفي وسعهم أن يشتروا لوازمهم دفعة واحدة ليحصلوا على تخفيض في الأسعار فيضموا ما وفروه في هذه الأسعار إلى ما ادخروه ، فإذا اتفق فريق من العمال على اتباع هذه المبادئ زادت قوتهم بازدياد رأس مالهم وبصبح في مقدورهم أن يتوسعوا في خدمة أنفسهم ، كأن يفتحوا دكانا يوزد لهم كل ما يلزمهم . وينافس هذا الدكان المحلات التجارية الأخرى في البيع بالجملة ، وكلما زادت مبيعات الدكان زاد ربحه وكبر رأس ماله ، ومتى كبر رأس المال أصبح في الإمكان إيجاد عمل لأفراد المجتمع فيما هو أجدى عليهم بالمنفعة . وإذا أقبل الجمهور على طلب سلفة من السلع فنى الوسع أن يقوم الأعضاء بصناعة هذه السلفة ، ويسيروا في صرافى التدرج هذه إلى أن يصبحوا ملاكا للأرض أو مستأجرين لها . ولا يقوتنا أن يثل هذه الجمعية قبل أن تصل إلى هذه الدرجة من النمو والارتقاء تكون قد تمكنت من تعليم أولاد الأعضاء وتثقيفهم أحسن ثقافة "

هذا مثل مما كتبه "وليم كنج" في مجلته "التعاون" . وقد تناول في أعدادها الأخيرة شؤون التعاون بالنسبة لحياة المجتمع عامة ، فكان يقول لأتباع نظرية "مالسن" إن سبب الفقر ليس في زيادة عدد السكان على الحد المناسب ، بل هو في زيادة الإنتاج على الحد المطلوب بسبب ما يأتيه الرأسماليون من خطأ في توجيه الإنتاج وعدم إدراكهم لمقدار الطلب على السلع . وكان يحاجهم في هذا ، ويدل على أن علاج الفقر لا يكون بالحث على الإقلال من الفسل أو انتظار المبيعات والأوبئة والحروب التي تنفك بالسكان ، وإنما يكون عن طريق التنظيم التعاوني كي يصبح العمال جميعا ممولين فنتمو عندهم ملكة الإنتاج على قدر الطلب .

من هذه التعاليم وهذه الكتابات انتشرت الفكرة التعاونية بين العمال وكثر عدد أتباع أوين وتومسون وكنج ، وتكوّنت لدى الرأي العام أفكار جديدة غير التي كوّنها علم الاقتصاد

الأول ، وتبنت الأدهان إلى وجوب العمل وبذل الجهود لإصلاح حالة العمال ، وقد تمددت المحاولات لإنشاء الميئات التعاونية بمختلف الأوضاع والصور .

وبلغ عدد المؤسسات التعاونية في عام ١٨٣٠ مائتين . منها ما كان يطلق عليه اسم «وانيت الاتحاد» " Union Shops " ، وقد عقد في هذه السنة وفي السنتين التاليتين مؤتمر تعاوني للنظر في شؤون التعاون وما يهم التعاونيين في مختلف أنحاء البلاد .

ومما يؤسف له أن هذه المحاولات جميعها لم تتوفر لها النجاح ، فلم تكن الفكرة التعاونية قد نضجت أو كمل نموها واستجلبت أسباب نجاحها . واستمر الحال على ذلك إلى أن كانت التجربة الخالدة في بلدة " روتشديل " التي قام بها فريق من الصناع في هذه البلدة ، وكانت جمعية روتشديل الجمعية التعاونية الاستهلاكية الأولى ، والجذر الأساسي لنظام التعاون الاستهلاكي ، والجمعية التي يشار إليها على الدوام كلما ذكر التعاون وجمعياته أو استعرض تاريخ الحركة التعاونية ونظامها أو أشيد بمبادئ تلك الحركة وأثرها الاقتصادي والاجتماعي ما

عبد اللطيف عاصر

تورية لطيفة

نزل الشاعر ابن هرمة عند قوم أظالوا معه المذاكرة في أمور القرآن والدين ولكنهم لم يطعموه . فانصرف عنهم وهو يقول :

قد حفظوا القرآن واستظهروا ما فيه لإسورة المائدة

وقال يسف جبهه :

دب فيها الهلى فدقت ورقة وهى تقرا اذا الدماء انشقت